الجهود المعجمية عند المستشرقين معجم فيشر التاريخي: المنهج والأسس أنموذجا

أ. وهيبة وهيب
جامعة تلمسان

• **ملخص: يسعى هذا المبحث إلى استعراض جهد لأحد أهم الإسهامات الاستشراقية في إعداد المعجم التاريخي، ممثلة في معجم فيشر التاريخي مستعرضين خصائصه وأسسه المنهجية.**

بدأ الاهتمام بالمعجم العربي منذ أن أصبحت اللغة العربية لغة الوحي الإلهي، لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، واعتناق الشعوب والأمم المختلفة الإسلام وانضوائها تحت رايته في دولة واحدة.

وفي الوقت الذي شرّف فيه الله تعالى هذه اللغة بأن صارت لغة القرآن (بلسان عربي مبين).

خرجت عن القوانين التي تحكم لغات البشر من حيث الاتجاه إلى التفتت والانتشار وسارت في مسارين متوازيين: أحدهما في مجال التوسع والنمو واستيعاب حصيلة ما وصل إليه الفكر الإنساني في مختلف حقول المعرفة والمسار الآخر يتمثل في بقائها موحدة ثابتة الأصول من حيث نحوها وصرفها والتجويد في نطقها [1].

يقول المستشرق الفرنسي ماسينيون: "اللغة العربية لغة وعي" ويقول في موضع آخر " إن في اللفظ العربي جرسا موسيقيا لا أجده في لغتي الفرنسية"[2]

ويقول عنها أحد المستشرقين المعاصرين: "إن اللغة العربية لغة متميزة عاشت 15 قرنا لم تتغير في أثنائها تغيرا جوهريا. إنها كفينوس ولدت وافية الجمال واحتفظت بهذا الجمال على الرغم مما أصابها بمرور الأيـام" [3].

لقد ورثنا هذه اللغة عن آبائنا ثرية وكاملة بقواعدها النحوية والصرفية المنضبطة وبمعاجمها الغنية، وهذه اللغة بالأوصاف التي ذكرناها وعبر تاريخها الطويل لاشك في حاجتها إلى معجم تاريخي يكون ديوانا شاملا لمفرداتها ومختلف التغيرات التي طرأت على معانيها وخزانة لأفكار أهلها .

لقد كان الوعي بحاجة العربية إلى معجم تاريخي مبكرا عند إنشاء مجمع اللغة بالقاهرة (1934 م).

فمرسوم إنشائه نص على أن من أغراض المجمع: (... أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية وأن ينشر أبحاثا دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها) وفي دور الانعقاد الأول أ ُلفت لجنة لتنفيذ الفقرة الخاصة بالمعجم التاريخي. وكان من أعضاء المجمع آنذاك المستشرق الألماني (فيشر) الذي شرح لأعضاء المجمع كيف وضعت الأمم الأوروبية معاجمها التاريخية، وقدم بحثا حول طريقة العمل فيه وفي دور الانعقاد الثاني قدم إلى المجتمع نموذجا لمعجمه هو الثلث الأول من مادة (أخذ) مشفوعا بمراجعه ورموزه. فنوقش هذا النموذج ووافق عليه الأعضاء، وقرر رئيس المجمع تأليف لجنة للعمل مع فيشر في مراجعة معجمه.وقبل أن يسافر إلى ألمانيا عام 1939 م كان قد أعد مقدمته والجزء الأول منه، وبعد اندلاع الحرب العالمية لم يعد فيشر إلى مصر وتعذرت مواصلة العمل في المعجم، وفي سنة 1949 توفي فيشر وقرر المجمع طبع ونشر ما أعده فيشر من المعجم [4].

وما يجدر الإشارة إليه أن ما قدمه فيشر لم يكن معجما تاريخيا بالمعنى العام ولكنه لما تكفل بالتأريخ للعصر الجاهلي والقرون الثلاثة الأولى من

الإسلام بقي على المجمع أن يستكمل العمل في الفترة التالية التي أرخ لها فيشر وهي تقدر بحوالي عشرة قرون، وبهذا يصبح المعجم تاريخيا.[5]

وقد وضح فيشر منهج معجمه في مقدمته التي طبعها مع نموذج منها وأجاب على سؤال افترضه:

كيف يجب أن يكون معجم اللغة العربية الفصحى ملائما للتطور العلمي في العصر الحاضر؟

يقول: يجب أن يشتمل المعجم على كل كلمة وجدت في اللغة، وأن تعرض على حسب وجهات النظر السبع الآتية: التاريخية، الاشتقاقية، التصريفية التعبيرية، البيانية، الأسلوبية .[6]

وحتى يكون صنع المعجم دقيقا جعل له حدا زمنيا يمتد من عصر الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث الهجري، وهو ما أشار إليه بقوله: "فالمعجم يتناول بقدر الإمكان بحث تاريخ كل الكلمات التي جاءت في الآداب العربية مبتدءا بالكتابة المنقوشة المعروفة بكتابة النمارة من القرن الرابع للميلاد ومنتهيا بالعقد

السابق ذكره (نهاية القرن 3 هـ أي حتى منتهى ما وصلت إليه اللغة العربية الفصحى من كمال) .[7]

وحدد ميدان بحثه بقوله: " يتناول الكلمات الموجودة في القرآن والحديث والشعر والأمثال والمؤلفات التاريخية والجغرافية وكتب الأدب والكتابات المنقوشة والمخطوطات على أوراق البردي وعلى النقود ... وقد استثنيت من ذلك في الغالب الكتب الفنية إلا أني توسعت في أخذ المصطلحات منها "[8]

والأصل عند فيشر أن تكون مصادر معجمه المصادر الأصلية الأولى للعرب لا المعاجم، وعودته إلى المعاجم كانت عند انعدام وجود مصدر لأحد الألفاظ وهو ما صرح به: "ولكن وردت في المعجمات العربية الكبيرة التي صنفها

العرب كلمات وتعابير ومعان لم أعثر على شواهـد لها في الكتب التي بحثتها"[9]

ويمكن سرد هذه المصادر على النحو التالي : [10]

- جمع كل الكلمات التي في :

- دواوين: امرئ القيس، النابغة الذبياني، عنترة، طرفة، علقمة زهير بن أبي سلمى، الأعشى، الطرماح، الطفيل الغنوي، جران العود، ذي الرمة.

- جمع كل الكلمات تقريبا التي في:

- ديوان أسفار الهذليين

- ديوان أوس بن الحجر

- في حماسة أبي تمام

- في حماسة البحثري

- في المقامات الحريرية

- كل الكلمات غير المشهورة التي في

- دواويـن: عبيد بن الأبرص، عامر بن الطفيل، المتلمس، الحطيئة، عمر بن قميئة،عروة بن الورد، قيس بن الخطيم، حاتم الطائي، عمر بن كلثوم الحارث بن حلزة، لبيد بن ربيعة، الخنساء، أمية بن أبي الصلت، حسان بن ثابث، سلامة بن جندل، الشماخ، أبي ذؤيب الهدلي، أبي كبير الهذلي القطامي، القحيف العقيلي، ابي دهبل الجمحي، مزاحم العقيلي، عمر بن أبي ربيعة، الكميت، الهاشميات، ابن قيس الرقيات، كثير عزة، أبي العتاهية الفرزدق، جرير، الأخطل، العجاج، رؤبة بن العجاج - في بعض شعر أبي العلاء المعري وأبي نواس

- في الأصمعيات

- في مجمع الأمثال للميداني

ـ في صحيحي البخاري والمسلم

كلمات كثيرة:

ـ في الكامل للمبرد

ـ في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام .

ـ في كتاب المغازي للواقدي

ـ في التاريخ للطبري

وجمع :

ـ كل الاصطلاحات النحوية التي في كتاب سيبويه وفي كتاب المفصل للزمخشري .

ـ الإصلاحات الخاصة بالحديث وبنقد أساليب الحديث.

أما ترتيبه للكلمات فكان حسب الترتيب المألوف لحروف الهجاء العربية على اعتبار الحرف الأول والثاني والثالث أساسا ويبدأ المادة بذكر الفعل المجرد ثم المزيد ، وتذكر الأسماء كلها بعد الأفعال سواء كانت مشتقة أم جامدة[11].

وبعد هذه النظرة الفاحصة لمنهج فيشر في معجمه استطعنا الوقوف على بعض المزايا التي جعلت من معجمه نموذجا متميزا نجملها في النقاط التالية:

1 ـ الاعتماد على النصوص الأصلية من المصادر العربية دون الاعتماد على المعاجم.

2 ـ التحديد الزمني الدقيق بالانطلاق من أقدم عصر وردت فيه الكلمة إلى غاية نهاية القرن 3 هـ.

وهذا يعني تتبع مسار الكلمة تاريخيا.

3 ـ إرشاده إلى المعنى الحقيقي للكلمة بذكر الشاهد من بعض المصادر العربية .

4 ـ يتبع الشرح العربي الكلمات شرح مختصر بالإنجليزية وآخر بالفرنسية وهذه المزايا إن دلت فإنها تدل على جهد الأستاذ المستشرق فيشر

الجاد في ميدان صناعة المعجم، ويعتبر هذا المعجم على الرغم من عدم إكماله تاريخيا ركيزة يعول عليها المعجميون المحدثون لإنشاء معجم للغة العربية بالاستفادة من هذه التجارب الرائدة في مجال المعجمية.

هوامش البحث ومراجعه:

(1) ــ ينظر : اللغة العربية على مدارج القرن الواحد والعشرين. عبد الكريم خليفة، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003، ص 29 .

(2) ــ مقالات لغوية، صالح بلعيد، دار هومة، د ط، 2004، ص 79

(3) ــ المعجم التاريخي للغة العربية، محمد حسن عبد العزيز، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 2008، ص40.

(4) ــ ينظر: نفسه ــ ص52.

(5) ــ ينظر: نفسه ــ ص55.

(6) ــ ينظر: نفسه ــ ص54.

(7) ــ ينظر: المعجم العربي، نشأته وتطوره، حسني نصار، دار مصر للطبـــــاعة، د ط 1988، ج2، ص587.

(8) ــ نفسه، ص 588.

(9) ــ ينظر: نفسه ــ ص 588.

(10) ــ ينظر: المعجم التاريخي للغة العربية، محمد حسن عبد العزيز، ص30.

(11) ــ ينظر المعجم العربي نشأته وتطوره، ص289.